قد اضطرمت مراحمي جميعاً

"قد انقلب عليّ قلبي. قد اضطرمت مراحمي جميعاً" (هو١١:٨) هكذا كان رد فعل الله أمام ارتداد إسرائيل عنه ووقوعه تحت التأديب. وانقلاب قلب الله عليه واضطرام مراحمه هي عبارات توحي بحركة ديناميكية قوية فعالة من الله نحو الإنسان لا تحمل إليه مجرد أفعال إلهية رحومة ولكنها تحرك لعنصر الرحمة في طبيعة الله. وعنصر الرحمة هذا هو الابن الذي يخاطبه الكاهن في قسمة الابن قائلاً: "أيها الكائن الذي كان الذاتي الأزلي قبل الأكوان، الجليس مع الآب الوحيد معه في الربوبية، **عنصر المراحم**، الذي شاء بإرادته أن يتألم عوض الخطاة الذين أولهم أنا". يعني ذلك أن الابن المولود من الآب قبل كل الدهور ومن العذراء في ملء الزمان هو عنصر الرحمة الإلهية الذي بتجسده وموته وقيامته خَبَّر وشهد للآب عن مراحمه. وعندما امتلأ زكريا الكاهن من الروح القدس وتنبأ عن رسالة ابنه يوحنا المعمدان قال: "لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم **بأحشاء رحمة إلهنا** التي بها افتقدنا المُشرق من العلاء" (لو١: ٧٧-٧٨). وإن كانت مغفرة الخطايا قد تمت بواسطة الابن على الصليب فإن عبارة "أحشاء رحمة إلهنا" في الآية السابقة هي مرادف لكلمة الابن. وقول بولس الرسول: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، **أبو المراحم**، وإله كل تعزية" (٢كو١:٣) هو قول واضح وصريح أن المسيح هو ذاته المراحم. بالمثل أيضاً نحن نصلي في قطع الساعة الثالثة متضرعين إلى السيدة العذراء قائلين: "افتحي لنا **باب الرحمة**" وما هو باب الرحمة الذي تستطيع السيدة العذراء أن تفتحه لنا سوى ابنها المتجسد منها من أجل خلاصنا.

يعني ذلك أنه بدءاً من خطية آدم حتى خطية آخر إنسان على وجه الأرض يكون رد فعل الله واحداً من نحو كل تلك الخطايا وهو "اضطرام مراحمه" أي تحرك ابنه نحو البشرية الساقطة بعمله الخلاصي. و"جميعاً" تؤكد على أن بذل الله الآب لابنه من أجل خلاص البشرية من خطاياها هو بذل تام. من أجل ذلك تعمد آباء الكنيسة الحاذقون الملهمون بالروح القدس أن يكرروا عبارة: "يا رب ارحم" بشكل متواتر في كل الصلوات الليتورجية، وصلوات السواعي، والتسبحة اليومية بل أنهم خصصوا "صلاة يسوع" لكي تكون صلاة سهمية لطلب الرحمة ليلاً ونهاراً من الرب يسوع المسيح. وكأننا بصراخنا المتواتر إلى الله في كل حين طالبين مراحمه نواجه خطايانا المتراكمة علينا كل حين بطلبة هي في جوهرها تسعى لأن تجتذب لنفوسنا عمل الابن الذي هو عنصر المراحم في الثالوث القدوس.

والآن ماذا يسعنا سوى أن نصرخ أيضاً قائلين:

يا ربي يسوع المسيح عنصر المراحم ارحمني،

يا ربي يسوع المسيح أحشاء رحمة إلهنا ارحمني،

يا ربي يسوع المسيح باب الرحمة ارحمني.